الموسم

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

مجلة الموسم (العدد 13) – 1992 – 1413

ارشيو نشريات
... تخصصي دارالحد...
٢١٤٣٨

الموسم

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

Shiabooks.net

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة

ترسل جميع المراسلات والطلبات بإسم صاحب المجلة الى :

المركز الوثائقي لتراث اهل البيت عليهم السلام

اكاديمية الكوفة

هولندا

AL KUFA HOUSE POST BUS 1113
3260 AC OUD - BEIJRLAND
HOLLAND FAX: 01860 - 20712

الاشتراك السنوي للأفراد ٥٠ $ وللمؤسسات ١٠٠ $.

كربلاء بين رؤيتين

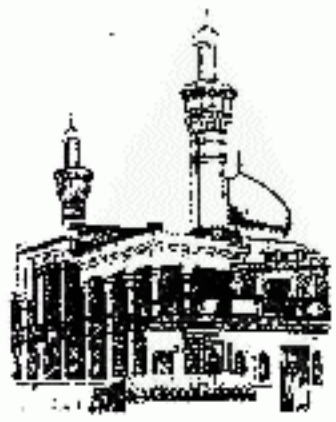

● الدكتور عبد المجيد زراقط
(لبنان)

دخلت كربلاء ، منذ حدوثها ، في تكوين وجدان الإنسان المسلم ، وشكّلت ، على مدى التاريخ ، في وعيه ولا وعيه مناخاً من الحزن الولود ، يحثّ على التأمل في شؤون الحياة الدنيا والآخرة ، ويدفع الى اليقظة وتبيّن سبل الرشاد ؛ الأمر الذي يفضي الى اختيار سلوك تغييري يرمي الى رضى الرحمن وإرساء عدالته .

نلمس هذه الحقيقة في التاريخ والواقع ، وطالما جسّدها الشعراء ، مجسّدين بذلك طبيعة هذه التجربة الفريدة في التاريخ الإنساني . فنسمع ، على سبيل المثال صوت الكميت بن زيد الأسدي ، وهو ينشد في إحدى هاشمياته :

ألا هل عم في رأيه متأمّلُ ... وهل مدبرٌ ، بعد الإساءة مقبلُ
وهل أمّةٌ مستيقظون لرشدهم ... فيكشف عنه النّعسة المتزمّلُ
فقد طال هذا النومُ ، واستخرج الكرى ... مساويهم ، لو كان ذا الميلُ يعدلُ[1]

وإننا إذ ندرك هذا لا نعدم أن نجد ، بين الباحثين في التاريخ الإسلامي ، من يذهب الى رؤية اخرى ، فنقرأ على سبيل المثال ، مقالاً للدكتور د . رزق الله يقول فيه : إن العاشر من محرَّم كان حاسماً على صعيد اللاوعي الشيعي ، إذ أدخل مفهوم الخطيئة الى مذهب إسلامي ، وذلك أن «مقتل الحسين بن علي يعدّ بمثابة الحدث الهلعي في تاريخ الشيعة والمولّد لشعور بالذنب جماعي ناتج عن تخلّي شيعة الكوفة عن تأييد إمامهم» . ويرى الباحث ان الشعور بالذنب قاد الشيعة الى العقاب الذاتي الذي اتخذ عندهم شكلين :

الأول : ايديولوجي يُلحظ في التراث .
والثاني : جسماني يُلحظ في شعائر اللطم والضرب .

ويضيف الباحث قائلاً : إن هذين النمطين سيطرا حتى أيامنا هذه على الثقافة الاجتماعية الشيعية ، وانهما كانا صمامي أمان للسلطات القمعية ..

ويؤيد الباحث رأي الأستاذ أحمد أمين الوارد في فجر الاسلام الذي يصف فيه الشعر الشيعي بالحزن ، كما يذكر ، على سبيل تعزيز ما يذهب اليه ، رأي كانيتي الذي يرى أن المذهب الشيعي جنائزي[2] .

من عيوب البحث العلمي ، الأحكام العامة المطلقة ، والاعتماد على آراء الآخرين وعلى بعض الوقائع المجتزأة ، لتقرير أحكام عامة مطلقة تتناول تاريخاً طويلاً غنياً خصباً على مختلف الأصعدة .

ونحن ، وإن كنا لا نوافق على ما يذهب اليه ، فإننا لن نقع في ما وقع فيه من أخطاء ، وإنما سوف نلجأ الى التاريخ ، لنبحث على ضوئه عدة قضايا هي : موقع كربلاء في التاريخ الاسلامي ، ومنطلقها التاريخي ، طبيعة الحزن الذي تلاها ، أثرها المباشر في المجتمع الاسلامي ، وأثرها الدائم على مدى التاريخ ، وبخاصة على مستوى السلوك السياسي لنرى حقيقة ما يذهب اليه الباحث ، من أنها كانت «صمام أمان للسلطات القمعية» .

وبغية الوصول الى اليقين في صدد هذه القضايا سوف نعمد الى مقاربة وقائع التاريخ ونصوصه .

وصل الأمويون الى الخلافة بطريقة يوضحها معاوية ، عندما يقول في إحدى خطبه : «...لا بمحبَّة وليتها ، ولكن جالدتكم بسيفي هذا مجالدة»[٣] . وثبّتوا حكمهم مستخدمين وسائل يوضحها عتبة بن أبي سفيان ، أخو معاوية ، عندما يقول : «لا تمدّوا الأعناق الى غيرنا ، فإنها تنقطع دوننا»[٤] .

إنها صورة السيف القاطع للأعناق غير الخاضعة ، وهي صورة ارهاب يمارس بهدف تحقيق الطاعة المطلقة . ولم يكن الناس بقادرين على احتمال ارهاب القوة العسكرية ، ولهذا كان لا بد من نظرية تكون بمثابة ملجأ للناس الراضين الراضخين ، نظرية تبرر الطاعة ، فكان القدر الإلهي يبرر الطاعة ويطفىء المشاعر الرافضة ويقود الى الطاعة الراضية المرضية ، فهذا زياد بن أبيه ، يخاطب الناس قائلاً :

ـــ «أيها الناس ، إنّا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة . نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا . فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ...»[٥] .

ـــ وفي اطار الرؤية نفسها يقول روح بن زنباع أحد قادة الأمويين ، وفي صلة مباشرة بمبايعة يزيد ، وذلك لما رأى إبطاء الناس عن مبايعته : «أيها الناس ، إنّا لا ندعوكم الى لخم وجذام وكلب ولكننا ندعوكم الى قريش ، ومن جعل الله له هذا الأمر واختصّه به . وهو يزيد بن معاوية . ونحن أبناء الطعن والطاعون وفضلات الموت . وعندنا ، إن أحببتم وأطعتم من المعونة والفائدة ما شئتم»[٦] .

تهدف السلطة الأموية الى الطاعة متوسلة «أبناء فضلات الموت» و«المعونة والفائدة» جاعلة من هذه الطاعة قدراً إلهياً . إنه حق إلهي يُقرّر ، ووعيد متبوع بترغيب ، إنه السيف وكيس المال ، سيف وكيس يسوسان بسلطان الله الذي أعطى ...

والحقيقة أنها مفارقة تاريخية كبرى . أو كما يقول المستشرق فلهوزن : «...وكان من السخرية بفكرة الحكومة الثيوقراطية ان يظهر الأمويون ممثليها الأعلين . فهم كانوا مغتصبين . وظلوا كذلك . ولم يكونوا يستندون إلا الى قوتهم الخاصة . الى قوة أهل الشام . ولكن قوتهم لم تستطع قط أن تصير حقاً شرعياً»[٧] .

في سبيل كشف هذه المفارقة ، الزيف ، ومنع القوة العسكرية من أن تغدو حقاً شرعياً إلهياً له حق الطاعة بوصفها واجباً دينياً أو قدراً كانت كربلاء . وفي هذا الإطار من الفهم تعد كربلاء موقفاً ، جهاداً في سبيل التغيير ، ينطلق من الإيمان بوجوب ذلك وجوباً شرعياً يستند الى نص ديني وموقع تاريخي . وهذا ما نفيده من خطب الإمام الحسين(ع) التي نقتطف منها ما يلي :

ـــ «...إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : [من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ، ناكثاً بعهد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يعمل في عباده بالإثم والعدوان ، فلم يُغير عليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله ان يدخله مدخله] .

ـــ «....ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطّلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء ، وأحلوا حرام الله وأحرموا حلاله ، وأنا أحق من غيّر ، وأنا الحسين بن علي وابن فاطمة»[٨] ..

وهكذا تبدو كربلاء ، في حقيقتها ، حركة تاريخية تهدف الى تغيير وجهة سير التاريخ وإعادتها الى الاتجاه الأصوب الذي حدده الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم . وهي ، وإن لم تنجح عسكرياً حين حدوثها ، فقد كانت واجباً شرعياً يُؤدى من ناحية اولى ، ووضعت أسس التحرك التاريخي ، في الحالات المماثلة ، على مرّ العصور ، من ناحية ثانية .

وفي غمرة احتدام المعركة ، وكانت نتائجها واضحة منذ بدايتها ، أدى الحسين(ع) وأصحابه واجبهم ، وواجهوا مصيرهم بشجاعة منقطعة النظير ، وبإصرار على بذل النفس في سبيل أداء الواجب لا يكون إلاّ من أمثالهم . وما كانوا يرتمون على الموت ، وإنما كانوا يوظّفونه في سبيل شق طريق التغيير أمام الأجيال التالية . وإن كنا نريد إعطاء مثل فلن يكون موقف الحسين(ع) . وذلك لشهرة هذا الموقف وإنما سيكون موقفاً آخر ، وليكن موقف مسلم بن عقيل الذي يرويه الطبري ، كما يلي :

«أشرفوا عليه من فوق ظهر البيت ، فأخذوا يرمونه بالحجارة ، ويلهبون النار في أطنان القصب ، ثم يقلبونها عليه من فوق البيت . فلما رأى ذلك خرج عليهم مصلتاً سيفه ، فقاتلهم . فأقبل عليه محمد بن الأشعث ، فقال : يا فتى لك الأمان . لا تقتل نفسك ، فأقبل يقاتلهم ، وهو يقول :

أقسمت لا أُقتل إلا حُرّاً وإن رأيت الموت شيئاً نُكرا»[٩]

وليس من شك في أن ما حدث في العاشر من محرم ، في كربلاء ، أورث حزناً ، تواصل التعبير عنه على مرّ العصور ، ويمكن ان نستشهد بمثال يجسده ، ويعود الى ذلك العصر ، وهو مقطوعة شعرية تُنسب الى محمد بن علي «ابن الحنيفة» :

أأدهنُ رأسي أم تطيبُ مجالسي وخدُّك مصفورٌ ، وأنت سليبُ
أأشرب ماء المُزن من غير مائه وقد ضمّت الأحشاء منك لهيبُ
سأبكيك ما ناحت حمامةُ أيكة وما اخضرَّ في دوح الحجاز قضيبُ
غريبٌ ، وأكنافُ الحجاز تحوطُه الا كلُّ من تحت التراب غريب[١٠]

يبكي ابن الإمام علي بكاء مراً ، ويحس إحساساً بالغربة فظيعاً ، وتتغير رؤيته الى أشياء العالم فصار يتعامل معها بتساؤل مفجع عن جدواها ..

اهتزت علاقة محمد بن علي بالعالم ، ولكن هل كان وحيداً في هذا المرقف ؟ والحقيقة ان عودة الى كتب التاريخ والأدب تفيد أن حالة من الحزن العميق عمّت العالم الاسلامي ، آنذاك ، رافقها شعور بالذنب فظيع . وكانت هذه الحالة شعبية دخلت الى صميم وجدان المسلمين والى لا وعيهم ، ونكتفي للاستشهاد هنا ببعض الأمثلة التي تجسد وعي المسلمين ولا وعيهم وحالتهم الوجدانية التي تكوّنت على اثر كربلاء .

ـــ يروي الطبري ان الناس في الحجاز مكثوا شهرين او ثلاثة «كأنما تلطخ الحوائط بالدماء ساعة تطلع الشمس حتى ترتفع» . وصاروا يرون «اللون الأحمر» يلف مدينتهم ويسيل في شوارعها ويلوّن أبنيتهم ، و«اللون الأصفر» يصيب الشمس بالذبول في عز الظهيرة ، و«الغبرة» تملأ السماءفي كل حين ..[١١] .

إن هذه المظاهر التي صار يراها الناس تعبر عن أحاسيس يعيشونها تملأ عليهم وجودهم ، فتبدو وكأنها وقائع مادية .

— ويروي الطبري أيضاً : «...قال : أصبحنا صبيحة مقتل الحسين بالمدينة ، فإذا مولى لنا يحدثنا قال : سمعتُ البارحة منادياً ينادي :

أيها القاتلون جهلاً حسيناً   أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعو عليكم   من نبيٍ وملك وقبيل[12]

وقد خلّد الشعر مثل هذه الأحداث ، فقال الشاعر :

ألم تر أن الشمس أضحت مريضة   لفقد حسين ، والبلاد اقشعرت
وقد أعولت تبكي السماء لفقده   وأنجمها ناحت عليه وصلّت[13]

وإن لم تكن مثل هذه الحالة قد تكوّنت لدى المسلمين العاديين ، فإننا لا نعدم أن نجد آثار كربلاء لدى المشتركين فيها ، ومما يدل على ذلك خبران ، تهمّنا من الخبر الأول دلالته ، فهو وإن لم يكن قد حدث فعلاً ، فإنه يوضح مدى الإحساس بالإثم والرعب اللذين كانا ينتابان أناس ذلك العصر ، فيولدا لهم صوراً وأحداثاً هي ابنة للحالة التي كانوا يعيشونها ويعانون من وطأتها . والخبر يقول : «قعد الذين ذهبوا بالرأس في أول مرحلة من الطريق ، وجلسوا يشربون النبيذ ، فإذا قلمٌ من حديد يخرج عليها من حائط فيكتب بالدم :

أترجو أمة قتلت حسيناً   شفاعة جده يوم الحساب

وما كادت الجماعة تشهد هذا حتى فرّت هاربة وتركت الرأس» .

أما الخبر الثاني فذو دلالة على طبيعة الصراع الذي حدث في نفوس المشتركين في المعركة من نحو أول ، وعلى نوعية هؤلاء الناس وحقيقة انتمائهم وخيارهم . وهو يطرح سؤالاً حول حقيقة اتباعهم سبل الدين الاسلامي .

— ويروي الطبري ان عمر بن سعد التقى السيدة زينب(ع) على أثر حدوث كربلاء ، فخاطبته قائلة : «أيُقتل أبو عبد الله وأنت تنظر اليه ؟!» ..

ثم رف بوجهه عنها ودموعه تسيل على خدّيه ولحيته»[14] . وأعاد ما كان قاله عندما قرّر الاشتراك في المعركة ، وهي قوله :

أأترك ملك الري والري رغبتي   أم أرجع مذموماً بقتل حسين
وفي قتله النار التي ليس دونها   حجاب ، وملك الري قرة عيني[15]

إن فظاعة ما حدث في كربلاء جعلت الجلاد يبكي ، وذلك على الرغم من أنه أقدم على ما فعله بشكل واع ، وبناء على اختيار أطال التفكير فيه ، ولكنها الدنيا ، والدنيا حلاوة ، رمي في أيدي بني أمية» كما كانوا يقولون .

وهكذا ، كما يبدو واضحاً ، عاش المسلمون بعامة ، حالة من الحزن دخلت في التكوين الوجداني للنفس ، وإن تكن من قبل اختارت المشاركة في الإثم ، فإذا داهمتها فظاعة الجرم الذي ارتكبت ، وعاشت صراعاً حسمته المصالح : «قرّة العين» التي تعمي عن الصواب . وإن كان لا بد من إضافة في صدد هذه القضية نرى القول إن المذاهب الاسلامية لم تكن قد تكونت بعد ، والحديث عن مذهب شيعي في هذه الفترة من التاريخ غير دقيق .

ولم يبق المسلمون في حدود الحزن يكابدونه ويعانونه ، وإنما تحركوا .. واثمر الحزن في المدينة التي رأينا مظاهر من مشاعر أبنائها انتفاضة شكلت كربلاء خلفيتها ، لكن السيف المقنع بالحق الآلهي ، بالخلافة كان مسرفاً هذه المرة أيضاً ، وحدثت مجزرة «الحرّة» واستباحة المدينة ، وقصف مكة بالمنجنيق ، ثم كانت حركة التّوابين ، في العراق ..

يمكننا القول هنا ، ان كربلاء بدأت تثمر ثورات متتالية ، ولم تكن صمام أمان للسلطات القمعية ، ويهمنا هنا ، ان نناقش قضية «الشعور بالذنب» الذي كونته كربلاء من حيث طبيعته وأثره التاريخي ، وبخاصة لدى حركة التّوابين التي كانت ردة فعل مباشرة لكربلاء .

إن «الشعور بالذنب» خطير من ناحيتين : أنه إن تفجّر ثورة أو ارتدّ عدواناً على الذات كمهرب من القهر ، وهو في كل حالة يخدم اتجاهاً عدواً للاتجاه الآخر ، ففي الحالة الاولى يخدم الثوار وفي الحالة الثانية يخدم السلطان . نعي هذه الحقيقة ، ونريد أن نرى الى الحركات التي تلت كربلاء ، محاولين الإجابة عن السؤال التالي :

ــ أكانت هذه الحركات صمام أمان للسلطات القمعية أم انها حركات تنهج نهج كربلاء ؟

والحقيقة انه لا يمكن لأي عاقل ان يرى في خروج التوابين لقتال عبيد الله بن زياد صمام أمان له . وبخاصة ان حركة التوابين كانت حركة واعية منظمة في منطلقها وهدفها ووسائل تحقيق هذا الهدف .

والمعروف ان هذه الحركة بدأت بوصفها ردة فعل مباشرة لكربلاء وكان هدفها واضحاً ، كما يبدو من أقوال أحد قادة التوابين ، التي كان يدعو بها الناس الى الانضمام لحركته : «إنّا ندعوكم الى كتاب الله وسّنة نبيّه والطلب بدماء أهل بيته والى جهاد المحلّين المارقين ، فإن قتلنا فما عند الله خير من الأبرار ، وإن ظهرنا رددنا هذا الأمر الى أهل بيت نبينا» . ويضيف قائد آخر مبدأ «الدفع عن الضعفاء وجهاد المحلين»[16] .

كانت دعوتهم واضحة الأهداف ، فلنحاول التعرف الى حركتهم لتحقيق هذه الدعوى لنرى إن كانت ارتداداً على الذات أم تفجراً ايجابياً يسعى للجهاد والتغيير .

يقول الطبري : «لما قتل الحسين بن علي(ع) ، ورجع ابن زياد من معسكره بالنخيلة ، ودخل الكوفة تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم ، ورأت أنها أخطأت خطأ كبيراً بدعائهم الحسين(ع) .. ورأت أنه لا يغسل عارهم والإثم عنهم في مقتله إلابقتلهم من قتله أو القتل فيه» . ويعبّر أحد قادة التوابين عن موقفهم ، آنذاك : «ألا انهضوا ، وقد سخط ربّكم ، ولا ترجعوا الى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله»[17] .

واعتقد أن هذا الكلام واضح الدلالة على أنهم لم يحسوا الخطيئة فحسب ، وإنما أدركوها ووعوها ، وشكّل هذا الوعي لديهم حالة نهوض وفعل لا يهدآن حتى يرضى الله ، وهنا يبدو الفرق كبيراً جداً بين الاحساس والوعي . وكلما كانت الأمور أقل وضوحاً كلما كان توظيفها اللاعقلاني أكثر امكانية . وهذا لم يحصل لدى التوابين . ولم يحصل في تاريخ الشيعة إلا في فترات موّه فيها «يزيد العصر» . أما عندما تكون الأمور واضحة . فتوظيفها اللاعقلاني غير ممكن .

وهكذا نلمح وعي التوابين خطأهم ، ورأوا الطريق الموصلة الى تصحيحه ، وحدّدوا الهدف الذي يريدون تحقيقه ، فصرخوا : «ألا انهضوا» ولم يكتفوا بهذا بل ربطوا تحركهم ــ المضحّي بكل شيء ــ بالتاريخ النضالي ضد الأمويين . فنسمع أحد قادتهم يقول إن قتالهم

سيستمر «ولو كان في ذلك حزّ الرقاب وقتل الأولاد واستيفاء الأموال وهلاك العشائر ، ما ضرّ اهل عذراء الذين قتلوا ألا يكونوا أحياء اليوم ، وهم عند ربهم يرزقون»[١٨] .

ولم يكن التوابون فتياناً ساقتهم الحماسة بل كانوا رجالاً من ذوي المكانة الاجتماعية والدينية ، فعلى سبيل المثال نذكر سليمان بن صرّد الخزاعي صحابيٌّ جليل ، والمسيّب بن نجبة الفزاري : «فارس مُضر الحمراء كلها ، وإذا عُدّ من أشرافها عشرة كان أحدهم . وهو يعدّ رجل نسك ودين»[١٩] .

وحركتهم لم تكن ردة فعل فورية ، وإنما كانت حركة واعية استمر التحضير لها من عام ٦١هـ حتى عام ٦٥هـ . تولى الأمر خلالها خمسة قادة رأسوا سليمان بن صرّد عليهم ووزعوا الأدوار . فعلى سبيل المثال ، تولى عبد الله بن وال استلام الأموال وتجهيز الفقراء[٢٠] .

ويلاحظ في تصرّفهم انتفاء العصبيّة القبلية ، وهذا أمر نادر في ذلك العصر . وكان لديهم برنامج عمل محدّد . وكانوا يناقشون الأمور باستمرار مثل : اي عدوٌّ يواجهون في البداية ، قتلة الحسين في الكوفة أم عبيد الله بن زياد ؟ وإن انتهوا إلى رأي كانوا يعلّلونه . كما فعل سليمان بن صرّد ، عندما قال مبرّراً تفضيله لمواجهة ابن زياد أولاً : «رأيت أن قتلة الحسين هم أشراف الكوفة وفرسان العرب وهم المطالبون بدمه ...» وارسلوا إلى المدائن والبصرة رسلاً زيادة في الاستعداد .

وهكذا يبدوا واضحاً أن هذه الحركة كانت حركةً واعيةً منظّمة ، وكان ممكناً لها النجاح ، في معركتها الأولى ، لولا أن المختار الثقفي أتى واحدث انقساماً في الصفوف فلم يخرج من الاثني عشر ألفاً الذين سجلهم ديوان سليمان إلا اربعة آلاف .

ولعل في القليل المتبقي من شعر هذه الفترة دليلاً واضحاً على أن التعبير الأدبي لم يكن حزيناً بكائياً جنائزياً ، أي «مرتداً إلى الذّات» كما لم يكن السلوك العملي كذلك . ولعلنا بحاجة إلى إيراد بعض الأمثلة :

ـ كان المسيّب بن نجبة الفزاري يرتجز ، وهو يهجم :

قد علمت ميّالة الذّوائب واضحة اللّبات والتّرائب
انّي غداة الوغى والتّغالب أشجع من ذي لبدٍ مواثب
قطاع اقران مخوف النجائب[٢١]

ـ أرسل المثنى بن محربة العبدي مقطوعة شعرية في أسفل الكتاب الذي أجاب به دعوة سليمان بن صرّد : تبصّر كأني قد أتيتك ..

بكلّ فتىً لا يملأ الروع نحره محسّن لعضّ الحرب غير سؤوم
أخي ثقةٍ ينوي الإله بسعيه ضروب بنصل السّيف غير أثيمِ[٢٢]

أهذا «بكائيات وجنائزيات» .. أم وصف لهذه القوّة الآتية ، مرهب باعث للثقة في آن ؟ ولنلاحظ وصف المثنى الرائع للفتى القادم : محارب جلد ، أخو ثقة ، ينوي الإله بسعيه . وهذه العبارة : «ضروب بنصل السيف غير أثيم» التي لا نستطيع نثرها لما فيها من جمع بين القدرة على القتل وبين الإيمان والتقوى . ولعلها «الحرب العادلة» بلغة أيّامنا .

يصحو عبد الله بن الأحمر ، ويقرّر الاشتراك في المعركة ، وينشد داعياً أصحابه إلى إجابة النداء :

صحوتُ ، وقد أصحوا الصّبا والعواديا — وقلت لأصحابي : أجيبوا المناديات
وقولوا له : إذْ قام يدعو إلى الهدى — وقبل الدعا : لبيك لبيك داعيا
لبيك حسين مرمّل ذو خصاصة — عديم إماماً قد تشكى المواليا
الا وانح خير الناس جدّاً ووالداً — حسيناً لأهل الدين ، إن كنت ناعيا
فأضحى حسين للرماح دريئةً — وغودر مسلوباً لدى الطف ثاويا
فياليتني إذ ذاك ، كنت شهدته — فضاربت عنه الشانئين الأعاديا
سقى الله قبراً ضمن المجد والتقى — بغربيّة الطفّ الغمام الغواديا
فيا أمة تاهت وضلّت سفاهة — أنيبوا فارضوا الواحد المتعاليا[٣٣]

إنها صحوّة تعيد الشباب والرماحَ ، وتلبّي داعي الثورة وليست ردّة على الذّات . وهي صحوةٌ تلتفت إلى الأصحاب تريد لهم أن يشاركوا في عودة الصّبا بحماسه وشدته واندفاعه وتعامله مع الأسنّة تلبيةً لداعي الهدى . وهذه الصحوة لأهل الدين مميزاً لهم عن الآخرين ، كانت بفعل «كربلاء» . وقد عبر الشاعر عن ذلك بنعوه «خير الناس» وبصورتين للإمام تظهر الأولى حقيقته وتظهر الثانية ما حل به ، وكأنه يقابل بينهما ليكشف فظاعة ما حدث ، فيأتي موقفه ، الذي يتخذ شكل أمنية ، وليد تطور طبيعي ، ثم يتطور موقفه الذاتي إلى إطلاق نداءٍ لأمة تاهت سفاهة ، يطلب فيه منها العودةَ إلى الصواب وتلبية ندائه لأنه يحقق رضا الله المتعاليا . وهذا ما يجعلنا نضع قوله «لبيك داعياً ، لبيك حسين ...» في موقعه الصحيح ، إذ إنه يشبه : «لبيك اللهم لبيك ...» إنه تلبية ترضي الله . والملفت ، في صدد القضية التي تناقش ، ان عبد الله تذكّر ما حدث في كربلاء ، فتمنى أن يكون شهدها ويطلب للقبر الذي ضمن المجد والتقى السقيا . وينتهي بشكل صريح وواعٍ إلى النعي على الأمة ضلالها ، ويصرخ بها طالباً العودة إلى إرضاء الله . وكما يبدو ليس من ردّة على الذات إطلاقاً .

وُجّهت الدعوة إلى «أهل الدِّين» كما يقول عبد الله بن أحمر . وأثمرت فخرج الذين «أنابوا» و«أرضوا الواحد المتعاليا» والشاعر الفارس نفسه يرتجز بهم ، وهو على فرس له «يتآكل تآكلاً ، كميت مربوع» .

خرجن يلمعن بنا ارسالا — عوابساً يحملننا أبطالاً
نريد أن نلقى به إلا قتالا — القاسطين الغدّر الضلّالا
وقد رفضن الأهل والأموالا — والخفرات البيض والحجالا
نرضى به ذا النعم المفضالا[٣٤]

أبطال عوابسٌ يتجهون مسرعين سيوفهم تلمع ، يقصدون إلى قتال «القاسطين الغدّر الضلالا» ، رافضين كل ما في هذه الدنيا من مغريات ولذائذ ، يطلبون بذلك رضا الله .. أيكون هؤلاء «صمام أمان» للسلطات القمعيّة ؟ أيكون صنيعهم «ارتداداً على الذات» ؟ نريد للباحث ، أي باحث ، أن يكون ملمّاً بمختلف جوانب موضوعه قبل أن يحكم . «ونودّ أن

نضيف فنقول : إن الفرار من «الخطيئة» أو من «الاحساس بالإثم» وبغضب الله ، كان فراراً إلى رضا الله ، وهذا الرضوان كان سرّ الرجال وعلانيتهم ، وهذا ما نقرأه في كثير من تعبير ذلك العصر ولنقرأ ما كان يردّده أحد المنيبين الذي كان يقاتل قتالاً شديداً :

إنـي مـن الله إلى الله أفـرّ رضـوانـك ، اللهم ، أبـدي واسرّ[٢٥]

ولنسأل : أكان إحساس هذا الفارس بـ«الخطيئة» يرتد إلى نفسه عدواناً عليها ، أم أن إيمانه العميق ووعيه بمعطيات عصره يدفعانه إلى صحوة ثائرة تطلب رضوان الله في قتال «القاسطين الغدّر الضلالا» !؟

إن الإجابة واضحة ، ولا تحتاج إلى عناء ، فكربلاء كانت حدثاً يكشف الزيف ويدعو إلى صحوة ترى الأمور على حقيقتها ، وتدفع إلى فعل ثوري مغيّر في الاتجاه الذي يرضي الله . ولم يقتصر هذا التأثير على فترة من الزّمن محدّدة ، وإنّما استمر طوال العصور التوالي . ففي فترة ثار زيد بن علي ، وكان برنامجه الديني السياسي واضحاً ، إذ أنه قال في إحدى خطبه ، على سبيل المثال : «... إنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه ، وردّ المظالم ، والدفاع عن المستضعفين ، وإعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفيء بين أهل السّواد ، وجهاد الظالمين ، ونصرة أهل هذا البيت على من نصب لنا وجهل حقنا»[٢٦] .

ولم يكن تركّ زيد ردّة فعل عاطفيّة تنطلق من الإحساس بالإثم وإنما كانت ثورة برنامجها واضح ، كما أسلفنا ، وكان القائم بها ، كما يصفه هشام بن عبد الملك ، في الكتاب الذي أرسله إلى عامله يوسف بن عمر : «.. رجلاً جدلاً لسناً ، خليقاً بتمويه الكلام وصوغه واجترار الرّجال بحلاوة لسانه وبكثرة مخارجه وما يدلي به عند لدد الخصام من السّطوة على الخصم بالقوّة الحادّة لنيل الفلج ..»[٢٧] .

هذا هو زيد بن علي ، على لسان خصمه ، ومثله كان دعاته ، وكان تعبير هؤلاء شعراً وخطابةً . وليكن مثلنا على ذلك داعيتان ، وهما الشاعران الخطيبان في آن : عبد الله المرّي والكميت بن زيد الأسدي . ومما جاء في كتب التاريخ عن المرّي مايلي : «ما رأيت ، من هذه الأمة أحداً كان أبلغ من عبد الله المرّي في منطق ولا عظة» ، كان يخطب فيركّز على أهمية النبي ، ويتساءل : هل هناك أعظم حقاً منه !!؟ وهل هناك أعظم حقاً من ذرّيته !؟ ثم يصوّر هول الجرائم التي ارتكبت بحقّهم مخرّفاً القاتل والخاذل . وبعد أن يصل إلى غايته يفتح باب التوبة . وهذا يتم بعد عرض البرنامج المحدّد للثورة وقبوله . وكان يعيد هذا الكلام في كل يوم حتى يحفظه الجميع[٢٨] . والكميت بن زيد الأسدي كان يريد ، من شعره وخطبه ، أن يصل إلى هذه النتيجة ، قاصداً إلى أن يصل شعره إلى الناس عامة فيقبلون عليه بشوق ورغبة ويتدبرونه اطلاعاً وإعادة اطلاع ودراسة حتى يحفظوه . ومن هنا كان مصدر التجديد الفني في شعر الكميت .

إن ما ينبغي الاشارة إليه ، وإن كان التفصيل فيه غير متاح في هذا المقام هو التطوّر الفنّي الذي عرفه أدب الدعوة : شعراً وخطابة ، إذ إن تجربة الحركة الثورية تجسدت في نصوص لغويّة فنيّة تتوجه إلى الاهتمام بالإنسان وقضاياه ، معتمدةً وسائل التأثير والإقناع ، في استجابة واعية لشروط النشر في ذلك العصر ، وفي استفادةٍ من مختلف علومه وثقافته .

ويلاحظ الأستاذ أحمد نجا ، في كتابه عن الكميت بن زيد الأسدي ، أن الشاعر استخدم التكرار والطباق والترصيع والترتيب والمجاورة لتأكيد المعنى ، والالتفاف لتأكيد فكرة

أو نفيها . كما يلاحظ أن شعره يتميَّز بصفاء لغة وجزالة تعابير وانتقاء مفردات ، وأنه جدد من حيث القالب ، فصار موضوع الأطلال ثانوياً ، وانصرف إلى الجدل في بناء شعريٍّ متماسك ، كما أنه جدّد من حيث الموضوعات ؛ إذ هجر النسيب والأوضاع البدويّة ، وركّز على الاهتمام بالإنسان وقضاياه .

ويقارن الأستاذ نجا بين الكميت وبين أبي نواس ، ويعطي أمثلة منها قول الكميت :

فدع ذكر من لست من شأنه ولا هو من شأنك المنصب
وهاتِ الثناء لأهل الثناء باصوب من قولك الأصوب

ويقارن بين قول الكميت :

مالي في الدّار ، بعد ساكنها ولو تذكّرت أهلها ، ارب

وبين قول أبي نؤاس :

ومالي بدارٍ خلت من اهلها شغل ولا شجاني لها شخصٌ ولا طلل

وبعدما يستنفذ الباحث وجوه المقارنة بين الشاعرين ، ينتهي إلى القول : «الكميت هو الحافز الحق للثورة الأدبيّة العباسيّة والسبّاق للتحرر والتجدد»[٢٩] .

ويتحدث الدكتور عبد القادر القط عن ظاهرة التجدد في شعر الكميت ، فيخلص إلى القول : «... وتؤكد هذه الظاهرة الملموسة في شعر الكميت أن التطوّر الفني الذي عرف ، فيما بعد باسم البديع ... كان تطوّراً طبيعياً ممتداً ، متأثراً بطبيعة التجربة عند الشاعر وبحسه اللغوي والموسيقي»[٣٠] .

ويبدو أن القدماء لاحظوا تميّز شعر الكميت ، ونذكر ، في هذا الصدد ، وعلى سبيل المثال ، مايلي : سأل ابو تمام خشاقاً عن الكميت بن زيد وعن شعره وعن رأيه فيه ، فقال خشاف : «لقد قال كلاماً خبط فيه خبطاً من ذاك (مما لا يجوز) لا يجوز عندنا ولا نستحسنه ، وهو جائز عندكم . وهو على ذاك أشبه كلام الحاضرة بكلامنا وأعربه وأجوده ، ولقد تكلم في بعض أشعاره بلغة غير قومه»[٣١] .

تجربة الكميت بن زيد الحياتية تختلف ، غير تجربة بعض قومه ، فكان تجسيدها اللغوي الفني مختلفاً ، وهذا هو التجديد الحقيقي الأصيل إذ يرتبط فيه المتحوّل الشعري بالمتحوّل الحياتي ، والفرق كبير جداً بين أن تفرض التجربة الشعرية الشكل وبين أن يدور الشاعر على شكل يصب فيه معانيه ولا يكون أمامه إلا تزيين هذا القالب وتزويقه . وهذا الفرق نلحظه بين شعر الكميت وشعر البديع التالي له . ولعل مردُّ هذا الفرق يعود إلى شدّة اهتمام الكميت بالإنسان وإرادته أن يتجه الناس إلى معالجة مشكلاتهم الحقيقيّة ، وليس من شك في أن هذا جميعه أفضل ردٍّ على من يتهمون الأدب الشيعي بالارتماء في أحضان الحزن ، بوصفه منفسّاً للمشاكل والقضايا . إن الكميت يفتح باباً عريضاً للتطور الفني انطلاقاً من فكرة الاهتمام بالإنسان ومصيره وضرورة معالجته لمشكلاته . وهنا يكمن الفرق بين الأصالة والافتعال ، وبين الحركة المغيِّرة مبتغية رضوان الله وبين الركون إلى الثبات في ظلّ سلطات لا يتبع ما يقتضيه هذا الرضوان .

إن الداعية الثوري الذي يمثله الكميت في العصر الأموي ، يحدو بهذه الحركة الفاعلة في عصره ، وينشد لها في العصور التوالي ، قائلاً :

فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم فحتى م حتى م العناء المطوّلُ

إن صوت الكميت يتردّد في العصور التوالي وإن كنا نتوقف الآن ، عن مواكبته هذا الصوت ، فإننا نرغب في القول : ينبغي على أي حكم أن ينطلق من وقائع التاريخ وأن يكون دقيقاً ، وحرصاً منا على مثل هذا الحكم نؤكد أن ماذهب إليه د . رزق الله ومن يذهب مذهبه من الباحثين لا يصدق على الفترة الزمنية الممتدة من زمن حدوث كربلاء وحتى القضاء على الحكم الأموي وقيام الحكم العباسي . وليس من شكٍ في أنه لا يصدق تماماً على بقية العصور ، ولكن تأكيد ذلك بالوقائع يحتاج إلى دراسات خاصة ، وهذا ماندعو مطلقي الأحكام إلى فعله قبل إطلاق أحكامهم .

إشارات :

(١) الكميت بن زيد الأسدي ، الروضة المختارة ، بيروت : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٩٧٢ ، ص٦١ . (٢) د . عبد المجيد زراقط ، الشعر الأموي بين الفن والسلطات بيروت : دار الباحث ، ١٩٨٣ ، ص٢٧٧ . (٣) ابن عبد ربه الأندلسي (احمد بن محمد) ، العقد الفريد ، القاهرة : مطبعة الاستقامة ، ط٢ ، ١٩٥٣ ، ١٤٧/٤ . (٤) المصدر نفسه ، ص١٩٥ . (٥) أبو عثمان عمر بن بحر (الجاحظ) ، البيان والتبيين ، بيروت : الشركة اللبنانية للكتاب ، ١٩٦٨ ، ٢٤٤/٢ . (٦) المصدر نفسه ، ٢٠٣/١ . (٧) فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، لجنة التأليف والنشر ، ١٩٥٨ ، ص٦٠ . (٨) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة : المطبعة الحسينية ، ٢٢٩/٦ . (٩) المصدر نفسه ، ٢١٠/٦ . (١٠) أبو الحسين علي بن الحسين المسعودي ، مروج الذهب ومعاون الجوهر ، بغداد : دار الرجاء ، ٣٠٤/٢ . (١١) الطبري ، ٢٥٨/٦ . (١٢) المصدر نفسه ، ص٢٥٩ . (١٣) أبو الفرج ، علي بن الحسين الأصفهاني ، مقاتل الطالبين ، بيروت : دار إحياء الكتب العربية ، ص١٢١ . (١٤) الطبري ، ٢٦٧/٦ . (١٥) الشعر الأموي ، ص٢٠٦ ، نقلاً عن ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ٢٧/٤ . (١٦) الطبري ، ٥٣/٧ و٨١ . (١٧) المصدر نفسه ، ص٤٧ . (١٨) المصدر نفسه ، ص٥٠ أهل عذراء هم حجر بن عدي وأصحابه . (١٩) المصدر نفسه ، ص٥١ . (٢٠) المصدر نفسه ، ص٤٧ . (٢١) المصدر نفسه ، ص٧٦ . (٢٢) المصدر نفسه ، ص٥١ . (٢٣) مروج الذهب .. ، ٣٨/٣ . (٢٤) نفسه والطبري ، ٧١/٧ . (٢٥) الطبري ، ٨١/٧ . (٢٦) المصدر نفسه ، ٢٦٧/٨ . (٢٧) المصدر نفسه ، ١٧٢/٧ . (٢٨) المصدر نفسه ، ص٥٢ . (٢٩) د . أحمد صلاح الدين نجا ، الكميت بن زيد ، بيروت : دار العصر ، ١٩٥٧ ، ص١٩٠ . (٣٠) د . عبد القادر القط ، في الشعر الإسلامي والاموي ، بيروت : دار النهضة ، ١٩٧٦ ، ص٢٧٩ . (٣١) أبو عبد الله بن عمران (المرزباني) ، الموشح ، القاهرة : دار نهضة مصر ، ص٣١٠ .